وليس الرزق المضمون لأهله هو الكثير الغزير دوماً، إنما هو أقله أم يزيد، ما يقيم الأود وهو لقمة القوت، البقية على حياة، كيف لا والرسول ﷺ على محتده العالي في تقوى الله مضى عليه ما لم يذق طعاماً لأيام، وعلى حدّ قوله ﷺ: «... وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر..»[1] إذاً فالأصل المضمون من الرزق لأقل تقدير هو القوت، وفي الدعوة الزيادة حسب الفاعليات والقابليات.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾:

فحين يصدق المشركون أنه تعالى خالق السماوات والأرض، لا سواه، وهو مسخّر الشمس والقمر لا سواه ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ اتجاه الإفك الكذب إلى غير الله، طلب الرزق أم سواه؟.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾:

فما بسط الرزق معلّلاً - ككل - ببسط السعي وقدره، ولا قدره - ككل - بقدر السعي وقدره، فكم من باسط السعي قدر عليه رزقه، وكم من قدر السعي مبسوط له رزقه، فما التعرض للرزق بأسبابه إلّا سبباً من أسبابه وليس كلّ الأسباب، فإنما هو بيد مسبب الأسباب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ سعياً وسواه، وقدر الحاجة والحكمة في بسط الرزق وقدره.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٤٩ - أخرج عبد وابن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي يا ابن عمر مالك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهيه يا رسول الله ﷺ قال: لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة... فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين، قال فو الله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: وكأين من دابة... فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا واني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا ادخر رزقاً لغد.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

فحين يصدقون أن منزّل الماء من السماء ويحيي الأرض من بعد موتها هو الله، فكيف ينكرون إحياءهم بعد موتهم وهو أولى من الأولى وأحجى؟

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ ككل لأنه الله الخالق المسخّر المنزل المحيي ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إن الدار الآخرة لهي الحيوان، فهم رغم عقل الفطرة المفطور فيها، وعقل العقل وسائر العقل والدرك ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أخذاً للمعقول مأخذ القبول.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ وهي أدنى الحياة دنوا ودناءة، هي محصورة في ﴿لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ﴾ لمن أبصر إليها واخلد عليها فإنها تعميه، ولكنها لمن ابصر بها مبصرة فذريعة للدار الآخرة الحيوان.

وهذه آية ثانية تختص الحيوان بالدار الآخرة أولاها آية الفجر: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[1] مما يبرهن أنها أصل الحياة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لكنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2].

وفي مقابلة حيوان الدار الآخرة بلهو الحياة الدنيا ولعبها تلميحة مليحة أن حياة اللهو واللعب موت، وهي في الحق موت للإنسانية السامية وفوت لمحاصيلها العالية، المقصودة بالحياة الدنيا، وهي التذرع بها للأخرى.

فمن التهى فيها بلهوها ولعبها فهو الميت حقاً ومن ورائه ﴿جَهَنَّمَ لَا

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[1] ومن تركهما فيها وابتغي مرضات الله فهو الحي حقاً ومن وراءه الجنة خالداً فيها أبداً و﴿لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ الحياة الدائبة المتحركة دوماً نحو الجمال والكمال بما قدمته أيديهم من جمال المعرفة وكمال العبودية. حيث «الفعلان» تلمح إلى حركة، فكما أصل الحياة حركة، كذلك حركة الحياة حركة فوق حركة، وهي الكافلة كل مزاياها الكاملة بكل زواياها، الحافلة كل الغايات المسرودة لها، المترقبة المرغوبة منها، دائبة الارتقاء إلى كمالاتها دون أية وقفة في تلك الحيوية الأخروية العالية، وترى كيف تحصر الحياة الدنيا في لهو ولعب وهي مدرسة الصالحين والسابقين والمقربين؟ وحين تحصر هي فيها كما خلق الله فما هو تقصير الملتهين بها اللّاعبين فيها؟

«هذه» هنا المشيرة إلى حياة المشركين وسائر الكافرين، تخصهما بهم بسوء اختيارهم، فهي - إذاً - الدنيا الدنية، ولكنها الدنيا الدانية - وهي أقرب حياة إلينا - والعالية الزاكية للصالحين الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، إذا فهم دنياهم آخرة، والطالحون هم آخرتهم دنياهم، وأين دني من دنيا وآخرة من آخرة! فأهل الآخرة هم في الدنيا: «جزناها وهي خامدة» فنار الآخرة لهم خامدة هامدة، وأهل الدنيا هم في الآخرة ليست لهم خامدة، بل هي زائدة مايدة.

أجل والحياة الآخرة هي الفائضة بالحيوية الفائقة التصور، دون حجب وزحامات وموتات واصطدامات، مهما كانت الحياة الدنيا حياة إيمانية محضرة لها فضلاً عن الملهية، فبين الحياتين بون بعيد، والله من وراءنا رقيب عتيد، ف «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار

(١) سورة طه، الآية: ٧٤.

الغرور»[١]، وكما أن الحياة الجنينية هي حياة التحضير للدنيا، كذلك الحياة الدنيا هي حياة التحضير للأخرى، وكما أن هذه الأدنى هي الحيوان للأجنّة، كذلك تلك الأخرى العليا هي الحيوان لولائد الدنيا، وهي خير مدرسة بأفضل المدرسين ليستكمل فيها المكلفون حتى يحصلوا على محاصيل الحياة العليا فـ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ هي الدانية إلينا دنوا أكثر من كل حياة عقلية، لولاها لما كانت الحياة الآخرة هي الحيوان، كما وهي الدانية دناءة أكثر من كل دانية في الحياة لمن أخلد إليها واتبع هواه وكان أمره فرطاً.

فلا هي ذميمة دميمة في حد ذاتها لأنها مدرسة الصالحين، ولا هي خيّرة في حد ذاتها لأنها - فقط - ذريعة للدار الحيوان، فهي حين تتخذ أصلاً يبصر إليها ذميمة دميمة، وهي نفسها حين تتخذ فرعاً يبصر بها صالحة مبصرة.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

انهم يعيشون تناقض العقيدة، أو تناقض الفطرة والعقلية والعملية ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ كمثال على ظرف تقطّع الأسباب إلّا الله ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مهما كانوا به كافرين ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عقيدياً أم - لأقل تقدير - عملياً، أن ينسبوا نجاتهم إلى غير الله من الأسباب التي ضلت عنهم وتقطعت وهم في خضمّ البحر على الفلك! وهذه التناقضة هي طبيعة الحال لكل من لم يكمل إيمانه مهما كان مؤمناً فضلاً عن المشرك والملحد، فجرس الفطرة يسمعه أن لا إله إلّا هو، ثم شرس الغفلة والإنجذاب إلى الطبيعة يصمّه فـ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ولماذا؟

(١) الدر المنثور ٥: ١٤٩ - أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: يا عجباً..

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ اشراكاً قاصداً للكفر بالنعمة، ولكي يأخذوا حرياتهم في التمتع بمتع الحياة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا قدمت أنفسهم وبه يعذبون.

واللام هنا قد تعني الغاية، بياناً للغاية من إشراكهم تقصداً، حيث الإشراك خلاف الفطرة فلا بد من التخلف عنها من غاية.

وأخرى تعني أمر التهديد كـ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1] ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾[2] والجمع بينهما اجمع وأجمل.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

ألم يروا آيات الله ونعمه في الآفاق وفي أنفسهم؟ فإن لم يروها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا...﴾؟ جعلاً تكوينياً وتشريعياً مهما حصل فيه أو يحصل من اللاأمن واقعياً خلاف الشرعة الإلهية، حيث واقع الأمن فيه - على أية حال - أكثر مما سواه، وشرعة الأمن فيه لا تقاس بما سواه! ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ نفسه عن الهجمات والتهديمات، وآمنا فيه كل عاكف وباد «و» الحال إنه ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ تخطفاً دونما أي تعطّف في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، فلقد كان أهل الحرم المكي - ويكونون - يعيشون آمنين، يعظمهم الناس من أجل الحرم المحترم، ومن حولهم القبائل تتناحر وتتخطف، فلا تجد الأمان إلّا لجأ إلى الحرم، فيا عجباً أن يجعلوا من بيت الله مسرحاً ومأمنا لباطل الأصنام إيماناً بها ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ معبوداً سوى الله أياً كان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ثم ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ والكفر بنعمته هو الذي أدخلهم جحيم الكفر بوحدته افتراء عليه كذباً:

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٥.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

اللّهم لا أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ وهم افتروا عليه شركاء وأنداداً، ثم إذا جاءهم الحق التوحيد بوحي منه كذبوا به ﴿أَلَيْسَ﴾ إذا ﴿فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ ومأوى ومقاماً ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كما كانوا آوين إلى جهنم الكذب والتكذيب، ثاوين في كفرهم بالله العظيم! وهنا خير ختام في السورة بخير الأنام وهم المجاهدون في الله، المحسنون:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

وقد يختلف ﴿جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ عن «جاهدوا في سبيلنا» حيث الأول أخص، والجهد في جهاده أمسّ، وعبارة أخرى عن ﴿جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾: جاهدوا في الله كما ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1] المخاطب فيها أهل الله الخصوص حيث تتلوها - ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ . . .﴾[2] [3].

ففي (٣٠) موضعاً من القرآن المذكور فيها المجاهدة بصيغها المختلفة لا نجدها في الله إلّا في هاتين، ثم البقية بين في سبيل الله أم مطلقها بالأموال والأنفس أماذا؟ مما يدل على أن المجاهدة في الله هي القمة المرموقة منها بين درجاتها.

فهنا جهاد في سبيل الله يؤمر به كل من يؤمن بالله، ثم جهاد في الله

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٣) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولأشياعهم.

يؤمر به أهل الله الخصوص، فيعدهم هنا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ وهي غير سبيل الله الواضحة لكل من يجاهد فيها.

فالسبل الربانية الغامضة التي لا يهتدي إليها إلّا بالجهاد في الله، وهي عدة حسب عدّات الجهاد في الله عدّاته، إنها ليست سبيل الله المعروفة لكافة المكلفين المأمورين بالجهاد فيها.

إذاً فللجهاد ترتيب ثلاثي: في سبيل الله - في الله - ثم الاهتداء إلى سبل الله، والمحسنون هنا هم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا . . . وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ معية الرحمة الواصبة التي فيها هداية سبل الله معرفية وعلمية وعملية أماهيه، وهي بصيغة أخرى جنّة معرفية.

ثم «في الله» و«فينا» كما تختلفان رتبة عن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كذلك بينهما، فقد يفوق الجهاد في الله - كما في آية الحج للوسطاء الشهداء بين الرسول والأمة - يفوق الجهاد فينا كما هنا.

فهو في الله لا يعني إلّا الله لأنه الله، جهاداً معرفياً أو عملياً، وهو فينا قد يعني صفات الله كما وأسماؤه الحسنى حيث الجمع في «فينا» كاضرابها يعني جمعية الصفات، ثم هو في سبيل الله أدنى الجهاد مهما عم التكليف به لكافة المكلفين.

فـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ هم الوسط بين الذين جاهدوا في الله والذين جاهدوا في سبيل الله، والجهاد في الله بجمعية صفاته، ألّا ينحو فيه المجاهد إلّا منحاه، تغافلاً عن نفسه ومناها إلّا إياه، متديناً إلى الله متدلياً بالله، وعند ذلك ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ ككل، لأنه استخدم جهاده «فينا» ككل، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى.

وهكذا يعدنا ربنا - ومن احسن من الله وعداً - إن الجهاد في الله يخلّف الاهتداء إلى سبل الله، وهي سبل السلام على ضوء نوره وكتابه

المبين، بتبيين رسوله الأمين: ﴿. . .قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[١].

فالجهاد في الله هكذا سبيل إلى ﴿سُبُلَنَا﴾ وهي سبيل إلى «صراط مستقيم» وهو الغاية المرموقة المقصود للسالك إلى الله، والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق! فهناك سبل المرسلين: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٢].

وهنا سبلهم وكافة المجاهدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٣]، ثم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٤]. فالمجاهدات والارتياضات غير الموافقة لشرعة القرآن هي كلها هباء وخواء، قالة أم حالة أم فعالة، فـ «لا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة» وهي سنة الله على ضوء القرآن والسنّة.

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

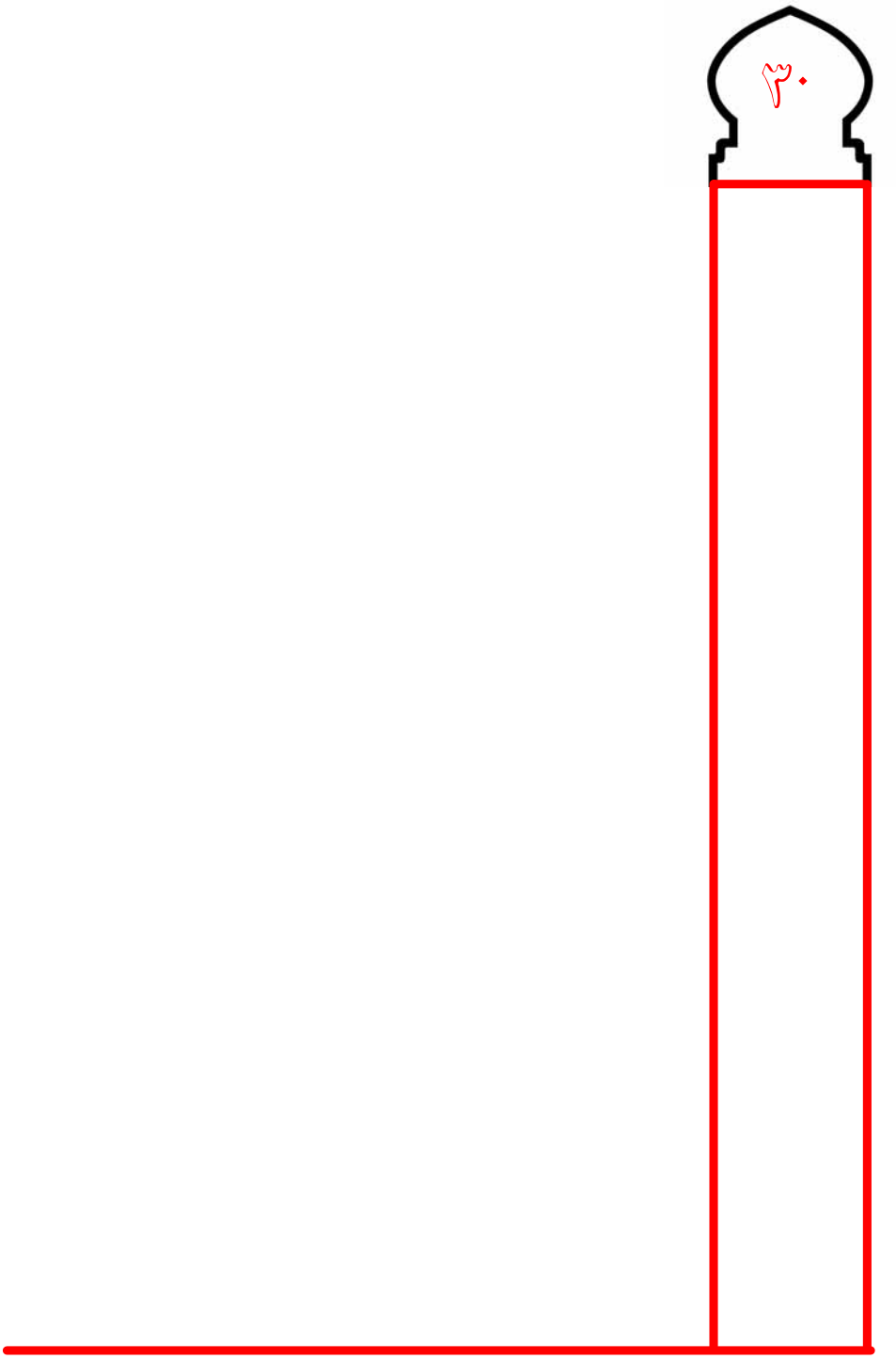
٣٠